الألف كتاب (الثانى) ٤١

سبع معارك فاصلة
فى العصور الوسطى

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

وسمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

مراد نسيم

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

سبع معارك فاصلة
فى العصور الوسطى

تأليف

جوزيف داهموس

ترجمة

د. محمد فتحى الشاعر

كلية الآداب – جامعة المنوفية

الطبعة الثانية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

تصـــدير

متى تكون المعركة فاصلة ؟ يقول فليتشر برات Fletcher Pratt لكى تكون المعركة فاصلة « لابد أن تشير بلا أدنى ريب الى احدى علامات التحـول التى لولاها لتغيرت الأحـوال ولربما اختلفت اختـلافا هائلا ولسار الحسم فى الاتجاه الآخر » (١) · ونظرا لأنه أغفـل ذكر معركة هيستنجز Hastings بين المعارك التى اعتبرها فاصلة ، وهى المعركة التى أورد ذكرها معظم المؤلفين الآخرين ، فاننا نستطيع أن نقرر أن مسألة كون معركة فاصلة أو غير فاصلة انما هى مسألة ذاتية فى أغلب الأحـوال ·

ومن الممكن أن يعتبر الصرب معركة كوسوفو Kossovo التى حـدثت سنة ١٣٨٩ م معـركة فاصلة لأن الأتراك وضعوا حـدا للطموحات الصربية فى اقامة امبراطورية فى البلقان · وربما حكم على تلك المعركة مواطنون أوربيون حكما مختلفا ، أو فكروا مليا فى السؤال الذى طرحه الناسك بولس على أنطونيوس فى القرن الرابع الميلادى ، عندما سأل فجأة بعد سنوات طويلة فى العزلة الصحراوية ، « ما هو حال الجنس البشرى ··· وامبراطورية من تلك التى تسيطر على العالم » (٢)· فبالنسبة الى بولس لا يوجد شىء يتعلق بالانسان يمـكن اعتباره حاسما على نحـو تام ، وهذا افتراض يبدو أن المؤرخ الحديث أوتـو مينشين ـ هيلفين Otto Maenchen-Helfen كان مستعدا لقبوله · فعنـد حديثه عن هؤلاء العلماء الذين أخذوا على عاتقهم تبرير كتاباتهم التاريخية المفصلة علق قائلا : « هل لى أن أشير الى أنى لم أتمكن من معرفة لماذا يلقى تاريخ باجا كاليفورنيا Baja California مثلا احتراما أكثر مما يلقاه الهن مثلا فى البلقان فى الستينيات من القرن الخامس ؟ » (٣) ·

ان المعارك السبع التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب تستحق كلها اهتماما كبيرا ، نظرا للنتائج التى تمخضت عنها مباشرة • وثمة معارك أخرى فى العصور الوسطى ربما كان لها نتائج حاسمة بقدر مماثل ، مثلما حدث فى معركة تور tours (٧٣٢ م) ، ومعركة ليجهانو Leghano (١١٧٦ م) ، ومعركة أجينكورت Angincourt (١٤١٥ م) أو غيرها • بيد أن المعارك السبع المختارة تستحق أن يرد ترتيبها بين أكثر المعارك الفاصلة أهمية ، كما يغطى اختيارها الوقت الزمنى للعصور الوسطى من شالون Chalon (٤٥١ م) ، الى أنقره (١٤٠٢ م) •

١ ـ الحرب فى العصور الوسطى

لكى نقوم بدراسة تمهيدية لموضوع تاريخ الحرب فى العصور الوسطى ، لابد للمرء من الرجوع الى عصر اضمحلال روما · اذ ان معظم دول أوربا فى العصور الوسطى ظهرت لأول مرة على امتداد الحدود الشمالية لتلك الامبراطورية وتأثرت عاداتها وثقافاتها ، ونظمها الاجتماعية بنفوذ روما الى حد ما ، ويدخل ضمن ذلك أساليبهم فى شن الحروب · وقد ساعد أسلاف كثير من شعوب تلك المنطق فى الدفاع عن حدود الامبراطورية ابان قرون تدهورها · فمنذ القرن الثانى الميلادى استعانت روما لأول مرة بتجنيد من لم يتمتعوا بحق المواطنة من الذين عاشوا داخل حدود الامبراطورية ، ثم من الشعوب الوافدة حديثا من خارج حدودها · وأدخل ماركوس أورليوس Marcus Aurelius عادة توطين آلاف من الجرمان داخل الامبراطورية حيث طلب منهم الدفاع عن الحدود· وفيما بعد جلب الامبراطور جوليان قبائل بأكملها ، ومنحهم وضع المحالفين Statu of Foederati من الناحية القانونية مع تحملهم مسئولية حماية المناطق التى عاشوا بها على الحدود ضد الشعوب الأجنبية من غيرهم · وبحلول القرن الرابع كان عدد الجنود غير الرومانيين قد زاد لدرجة أن التعبير اللاتينى barbarus ، الذى يعنى أحد البرابرة ، اكتسب الدلالة على الجند ·

ومن المؤكد بصفة عامة أن أعظم مآثر روما فى التاريخ هو أنها حفظت الكثير من التراث الحضارى للعالم القديم ، وعلى وجه الخصوص العالم اليونانى ، وسلمته الى الغرب · فاذا كان لروما (وبلاد اليونان) تأثير على الفكر ، واللغة ، والقانون ، والدين ، والفن ، والعلم الطبيعى ـ ونعنى بذلك حضارة دول المستقبل فى غرب أوربا ـ فانها تركت أيضا بصماتها على فن الحرب الذى مارسته تلك الدول الناشئة · وهى بالتأكيد فعلت ذلك ولكن بقدر محدود فحسب · واذا كان لدى روما الكثير لتقدمه الى تلك الشعوب شبه المتحضرة ، فانها فى مجال الحرب كانت على قدم المساواة تقريبا · فأفضل جندى فى عالم يوليوس قيصر عندما فتح بلاد الغال (٥١ ـ ٥٨ ق·م) كان جندى المشاة من المواطنين الذين شكلوا

الفرق الرومانية المشهورة · وبحلول القـرن الرابـع الميلادى ، كان هذا المحارب السابق مجرد ذكرى ، اذ كان أكثر المحاربين فعاليـــة فى هذا العصر المتأخر ، هو الفارس الذى يحمل السلاح ، وهو نوع من الجنود لم تكن روما قد استخدمته أبدا ، والواقع انها اعتمدت على الشعوب غير الرومانية لتمدها بالفرسان عندما دعت الحاجة · ان هذا الفارس قدر له أن يسود ميدان المعركة فى معظم العصور الوسطى ·

ولقد أدركت روما بمرارة تفوق الفارس المسلح فى أغسطس ٣٧٨م فى موقعـــة أدريانوبل Adrianople عندما أباد فرسان القوط الغربيـــون Visigoths « البرابرة » جيشـــا رومانيـــا ، وأردوا امبراطورها قتيلا على أرض المعركة · اذ كان تحرك القوط الغربيين من الأراضى السهلة الواسعة والخالية من الأشجار شمال البحر الأسود الى نهـــر الدانوب هربا من قبائل الهن Huns الذين طاردوهم بصفة مستمرة ، والذين انطلقوا من آسيا وأخضعوا بالفعل أبناء عمومتهم القوط الشرقيين Ostrogoths وعندما وصل القوط الغربيون الى نهـــر الدانوب ، منحهـم الامبراطـور فالنز Valens مكرها اذنا بالعبـــور والاقامة فى أراضى اقليم تراقيا Thrace وهناك قاموا بثورة بسبب ســوء معاملة الموظفين الرومان لهم ، ثم قضـــوا على الجيش الرومانى فى أدريانوبل مستخدمين أسلحة وخيولا « بربرية » وليست رومانية · ومن النتائج المهمة لهذه المعركة زيادة عناصر « البرابرة » فى جيوش روما على حساب العناصر الرومانية ·

وتشير معركة أدريانوبل الى الانهيار الشديد والسريع للامبراطورية فى الغرب (أما القسم الشرقى من الامبراطورية ، والمعروف باســـم الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية ، أو بيزنطة ، فقد استمر لألف سنة أخرى) ـ وهؤلاء القوط الغربيون الذين قضوا على الجيش الرومانى فى أدريانوبل ، هم الذين قادهم ملكهم الشـــهير آلارك Alaric ، ونهبوا مدينـــة روما سنة ٤١٠ م · وبعـد موت آلارك بوقت قصير تحركوا غربا وأقاموا ممالك « البرابرة » ، فى جنوب فرنسا « بلاد الغال » ، وفى اسبانيا عندما سحبت روما قواتها من حصونها الدفاعية على امتداد الحدود الشماليـــة للتصدى لتحدى آلارك والقوط الغربيين ، وانهـــــارت تلك الحـدود ، وعبرت أفواج من الونـدال Vandals ، والســوف Sueves ، ومن البورجونـديين Burgundians والألن Alans ، والفرنجة Franks ، والانجلز Angles ، والسكسون Saxons « البرابرة » الحدود وأقامت لأنفسها امارات على الأراضى التى كانت تسيطر عليها روما من قبل

ووافقت أغلبية تلك الشعوب على الاعتراف بالسيادة المطلقة لروما ، وقبلت الوضع القانونى كمحالفين حفاظا على ماء وجه روما . ان ذلك لم يكلفهم شيئا وانما ضمن لهم الحصول على القمح الرخيص من الأقاليم الافريقية التابعة لروما . كما حقق لهم قدرا من الاستقرار أيضا فى عالم كانت أحواله فى تغير مستمر . والواقع أن كثيرا من الشعوب اتحدت معا سنة ٤٥١ م ـ القوط الغربيون ، الفرنجة ، والبورجنديون ـ ضد عدو فرض اقترابه طرح أحقادهم جانبا على الفور .

كان الهن هم ذلك العدو ، وهم الذين شقوا طريقهم بالقوة فى الأراضى الواقعة شمال البحر الأسود حوالى سنة ٣٧٥ م ، وأقاموا امبراطورية مترامية الأطراف مركزها فى المجر ، وخلال سنوات قلائل أجبروا جيرانهم من القبائل الجرمانية على قبول سيطرتهم . ومن عاصمتهم على نهر ثيس Theisis حصلوا على الاتاوات من روما ومن القسطنطينية . على أن الالتزامات التى فرضوها على القسطنطينية كانت أكبر بكثير ، واستمرت فى الازدياد حتى سنة ٤٥٠ م ، عندما تحدى مارقيان Marcian الامبراطور البيزنطى ، أتيلا Attila ملك الهن ، وأعلن انتهاء دفع الاتاوة . ودفع هذا التحدى أتيلا الى قيادة جيشه الضخم من الهن غربا تجاه بلاد الغال . وفى سنة ٤٥١ م ، عند شالون Chalons واجه أتيلا الجيش « الرومانى » وحلفاءه من القوط الغربيين ، والفرنجة ، والبورجنديين ، والألن ، فى احدى المعارك الفاصلة فى التاريخ . وكانت هذه المعركة بمثابة تهديد خطير كان من الممكن أن يفضى الى القضاء السريع على مراحل الحضارة الرومانية التى كانت فى طريقها الى التطور لولا الهزيمة المنكرة التى تعرض لها أتيلا وجماعته وعودتهم الى المجر ثم ظهر أتيلا للمرة الثانية فى العام التالى ، فى شمال ايطاليا فى تلك المرة ، بيد أن الخطر الهنى انتهى بعد وقت قصير ، وتركت الأمم الجرمانية لتقيم دولا خاصة بها بحرية كاملة تقريبا .

واتضح أن دولة الفرنجة فاقت الدول التى قامت حديثا نجاحا . فعلى عكس الشعوب الجرمانية التى عبرت الى داخل حدود الامبراطورية مثل القوط الغربيين ، والوندال ، لم يبتعد الفرنجة عن مواطنهم الأصلية أو يهاجروا الى أراض بعيدة اذ لم يبتعدوا كثيرا تجاه الغرب عن موطنهم الأصلى شرق نهر الراين . وتحت حكم ملكهم المشهور كلوفس Clovis بسطوا السيطرة الفرنجية على الجزء الأكبر مما يعرف الآن باسم فرنسا . وحدثت خطوة مهمة ابان ظهور كلوفس الا وهى اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكى . وحقق له هذا الاجراء ولاء الهيئة الكهنوتية للكنيسة فى بلاد الغال ، وهى المؤسسة المنظمة الوحيدة التى ظهرت فى غرب أوربا .

وينسب جريجورى أسقف مدينة تور Tours الورع ، الى اله المسيحيين الانتصارات التى حققها كلوفس فى اجبار الشخصيات المهمة فى بلاد الغال على الاعتراف بحكمه وسلطانه • وبرغم مساعدة السماء المضافة الى ذكائه ، فان كلوفس احتاج الى محاربين وأسلحة لانجاز ما فعله • كانت أيام كلوفس فترة يكتنفها الغموض ، بيد أن هناك مبدأين عامين مقبولين بشكل معتدل يتعلقان بفن الحرب ويمكن ذكرهما : أولهما نوعية الحرب التى خاضها كلوفس ورجاله ، وكذلك الأسلحة التى استخدموها ، مما لم يختلف كثيرا عن الحالة عند جيرانهم ، وثانيهما ، أن تلك الحرب وما بها من أسلحة ظلت دون تغيير حتى النصف الثانى من القرن الثامن •

شكل جماعة خدام كلوفس قلب جيشه • وضمن كلوفس ولاء هؤلاء الرجال بمشاركتهم ثمار فتوحاته وبالقضاء على أى شخص حاول الاعتراض على سلطته • وكانت تلك الجماعات المسلحة شائعة ابان عصور الاضطراب عندما ضاعت هيبة السلطة الرومانية ، وكان ملوك الجرمان مجرد أسماء فحسب • اذ افتقر هؤلاء الملوك الى الثروة ، والجهاز الادارى والقوة المفروضة على الشعب التى تمكنهم من الحكم بفعالية ، اللهم الا اذا كانت سلطتهم فى مناطق محدودة •

وفيما يتعلق بنشأة تلك الجماعات الحربية ، يستطيع المرء أن يجد مفتاحا فى فرقة الزملاء Comitatus القديمة ، وهو اجراء نسبه تاكيتوس Tacitus المؤرخ الرومانى الى الجرمان على عهده • اذ اعتاد شباب أى قبيلة على اسلام أنفسهم لقيادة محارب يعجبون به ، « ويدافعون عنه ويتولون حمايته ، وينسبون الأعمال البطولية للفرد منهم الى فضله وشرفه ! » (١) وهناك نمط بدائى أكثر اقترابا من فرقة الزملاء ، وجد فى الجماعات المسلحة التى بدأت الشخصيات الرومانية البارزة فى تجنيدها ، عندما أخذت السلطة الرومانية فى الضعف ، من أجل حماية أنفسهم وممتلكاتهم الزراعية • وعرف قادة تلك الجماعات المسلحة باسم الكونتات Counts (الكلمة اللاتينية Comes ، وتعنى رفاق كفاح) ، أو الأدواق dukes (الكلمة اللاتينية dux ، وتعنى قائد) ، وكونوا العمود الفقرى للسلطة الملكية فى العصر الميروفنجى (٤٥١ ـ ٧٥٢ م) •

وبالاضافة الى فرقة الزملاء ذكر تاكيتوس أيضا عادة الجرمان فى الاحتياج الى قوات مسلحة من كل الرجال الأقوياء البنية • اذ كان مبدؤهم القتال ، اذا لم تكن مسئوليتهم الوحيدة وفقا لأحوال القبيلة • ومن هذا التراث يستطيع المرء أن يتتبع الاشارات الى القوات المجندة ، التى وجدها العلماء فى وثائق القصر الميروفنجى وربما تكون الاشارة عن

حالة تجنيد عامة ، بالرغم من ندرة ذلك ، اذ ان تجنيد معظم الناس على هذا الوضع كان يفتقر الى الخبرة والاحساس بالنظام مما قلل من فائدتهم. ومع ذلك ، فان قوات مجندة ومنتقاة يمكن أن تكون مفيدة فى الدفاع عن أسوار مدينة أو فى القيام بواجب الحراسة ، أو فى المساعدة فى محاصرة مدينة ، أو فى تولى حراسة الأسرى . ولا شك أن الرجال الذين عملوا فى مثل هذه الخدمة العسكرية ورثوا وظائفهم عن آبائهم وأجدادهم الذين عملوا بالمثل فى الامبراطورية السابقة .

وقد وضـــع الأفراد المحظوظون من تلك الجمـاعات فى العصر الميروفنجى خوذا على رؤوسهم وارتدوا قمصانا مدرعة ، على الرغم من أن تلك الملابس الوقائية لاتضاهى مثيلتها التى لايمـــكن أن تصاب بأذى والمستخدمة فى عصر الاقطاع . وحمل المحاربون تروسا أيضا . وأما عن الأسلحة فانهم اختاروا مجموعة منوعة من الرماح والحراب ، والسيوف ، والبلطات ، والأقواس والسهام ، والسكاكين ، التى اختلفت فى النوع والحجم ، وفقا لظروف القتال سواء كانوا مشاة ، أو على ظهور الخيل . وأثارت هذه النقطة سؤالا مثيرا للجدل والخلاف يتعلق بفن الحرب فى هذا الوقت ، وأعنى بذلك هل ركبت جماعات كلوفس ، وأبنـــاؤه ، وأحفاده ، الخيول لمجرد هدف الانتقال أم أنهم حاربوا وهم على ظهور الخيـل ؟

ان الدليل غير كاف وغير مقنع . فبعض الوحدات الفرنجية التى خدمت فى الجيش الرومانى فى أوائل القرن الخامس الميلادى حاربت على ظهور الخيل . بيد أن الدليل يشير الى أنه حتى سنة ٧٣٢ م ، قام جيش شارل المطرقة Charles Martel قائد الفرنجة بالذهاب الى محاربة المسلمين المغاربة على ظهور الخيل ، ثم ترجل جيشه عندما وصل الى ميدان المعركة ، وهزم الأعداء ثم ركب الخيل ثانية ، وطارد فلولهـــم وهو على ظهور الخيل . ومن المحتمل احتفاظ الملوك الميروفنجيين ببعض الخيول ، نظـــرا لأنهم كان لديهم أتبـــاع فى خـــدمتهم من الألن والسارماتيين Sarmatians ، والقوط ، وكلهم لهم تاريخ طويل فى استخدام الخيول فى الحرب ويرجع تأخر الفرنجة فى الأخذ بطريقة اســـتخدام الخيول فى الحرب الى أنماط حياتهم فى موطنهم الأصلى حيث أعاقتهـــم الغابات الكثيفة عن استخدام الخيول .

وعلى الرغم من أن معركة تور هى المعركة الوحيـــدة الكبرى التى حدثت طوال العصر الميروفنجى ، فان هناك عددا كبيرا من المعارك الصغرى دار حول المدن الكبرى والصغرى . ففى تلك الأماكن كان العدو يأمل فى الحصول على الغنيمة ـ وتركزت قوة العدو على المدن المحصـــنة .

وتشير المصادر الى آلات المنجنيق (آلة تستخدم لدك أسوار المدن) (*) المحمولة على عربات ضـــخمة ، والمغطاة بسقيفات من الخشب لحماية ما بداخلهـــا من القـذائف ، ومن الســلالم المصــنوعة من الحبـال ، من الواقعين تحت الحصار ، الذين كانوا يلقون مراجل من الزيت والقـار المغلى ، على الذين يحاصرون أسوار المدن • وهنـــاك اشـارة أيضا الى استخدام الحرفة البحرية فى تلك العصور • وربمـا يرجـع ذلك الى عصور الامبراطورية عندما تولت روما الحفاظ على الأمن فى انهـــار بلاد الغال أو تركت ذلك لمقدرة السكان •

وفى سنة ٧٥٢ م ، أعلن بيبين القصير Pepin the Short ابن شارل المطرقة ، نفسه ملكا ، وأسس الأسرة الكارولنجية وهى الأسرة الفرنجية الحاكمة الثانية وحملت هذه الأسرة اسم شارلمان بن بيبين ، الذى أثبت أنه أشـهر شخصيات تلك الأسرة وفوق كل ذلك فان انجـازاته العسكرية الموفقة كانت سببا فى اضفاء لقب « الكبير » عليه ، اذ قضى على اللومبارديين Lombards ، والآفار Avars ، وأخضـــع الساكسون Saxons الأشداء ، وشيد امبراطورية بلغت حدودها من الدانمارك الى كرواتيـــا Croatia ، ومن روما الى جبال البرانس حتى أراضى اسبانيا •

وفيما يتعلق بفن الحرب ، فقد شهد عصر شارلمان انطلاقة فى الاتجاه الى جعل الفارس المسلح سيد ميدان المعركة دون منازع • فلم يكن أمام شارلمان من خيار سوى الاعتماد الكلى على الفرسان نظرا لأن جيوش أعدائه الثلاثة ــ المسلمين المغاربة فى اسبانيا ، واللومبارديين فى ايطـــاليا ، والآفار فى شرق أوربا ــ تكونت بصفة أساسية من الفرسان • واذا ما كان شارلمان راغبا فى القضاء على الأعداء الذين طوقوا مملكتـــه ، فلم يكن أمامه من خيار سوى تجنيد فرسان مملكته ، ومشاركتهم فى القتال وفقا لشروطهم •

وهناك تفسير شخصى للاتجاه نحو استخدام الفرسان على أنه تطور أرجعه العلماء الى أوائل القرن الثامن الميلادى • هذه هى المقدمة لاستخدام الخيول فى الحرب • واستمر التفكير فى منشأ الخيل وبداية ظهورها فى أوربا على وجه التحديد بيد أنه لاريب فى أهميتها بشأن التأثير القوى على فن الحرب • وفى هذه المرحلة أثبت الفارس المسلح أنه محـارب لايقهر باستخدامه الرمح ، والقوس ، والسهام ، والسيف • غـير أنه نظـرا لافتقاره الى قاعدة ثابتة لكى يعمل عليها ، فلم يكن شديد الدقة ، كمـــا لم يتمكن من استخدام أسلحته بقوة كاملة • اذ كان الجواد الذى يمتطيه

(*) ما بين قوسين ايضاح من المترجم •

بمثابة القاعدة التي يعمل عليها • وما أن وجد الفارس نفسه مشدودا باحكام الى ظهر جواده حتى استطاع أن يقذف برمحه بأقصى سرعة ودقة ، واستطاع أن يسدد طعنة قوية بسيفه واستطاع أن يقف في ركاب جواده ، وأن يسدد ضربة قاضية باستخدام أقصى قوته في استعمال دبوس مشوك لكسر الدروع mace ، أو فأس الحرب battle-axe •

ولم يحدث ذلك في يوم وليلة ، بل انه ابان عصر شارلمان استمر جزء كبير من جيشه يتكون من المشاة • ومن الجدير بالذكر أن مجموعة الشرائع في عهده الزمت كل الرجال الذين لديهم اقطاعات ـ ممتلكات زراعية منتجة بقدر كاف للوفاء بحاجاتهم أن يعملوا كفرسان ، وأن يزودوا أنفسهم بالترس ، والرمح ، والخنجر ، والقوس وجعبة السهام ، والسهام • وعلى الأرجح لم يمض وقت طويل قبل أن تختفي الحاجة الى القوس والسهم عندما اكتشف الفارس أن أسلحته الأخرى أكثر فعالية بكثير وأسهل في الاستعمال •

ان ظهور الفارس المسلح في مركز التفوق بلا منازع في ميدان القتال في القرن التاسع الميلادي لم يعمل على تطوير فن الحرب فحسب ، وانما غير بدرجة كبيرة من البنية الأساسية والاجتماعية للمجتمع • والأمر الأساسي الذي يفسر هذا العبء الثقيل الذي ألقي على عاتق المجتمع هو التكاليف الباهظة للحصان الواحد التي قدرت في ذلك العصر بما يعادل قيمة أربعة وعشرين ثورا تقريبا ، في وقت كان ينظر فيه الى المزارع الذي يمتلك ثورا واحدا على أنه سعيد الحظ •

ان المشكلة الخطيرة التي واجهت الملك أو الاقطاعيين الكبار هي من أين يجدون الوسائل التي تمكنهم من تحويل جيوشهم أو الجماعات الحربية من الأتباع من جنود من المشاة الأرخص نسبيا الى الفرسان الذين كانت تكاليفهم باهظة •

ونظرا لأن هذا العصر كان عصر اقتصاد زراعي لم يستطع الملك فيه سوى تحقيق دخل حكومي قليل من المكوس ، والضرائب الأخرى من التجارة ، فانه كان مضطرا الى اللجوء الى الأرض ليحصل على الموارد المالية ليجهز فرسانه • وفعل ذلك بتوزيع قطع من ممتلكاته الزراعية على محاربين مختارين في بداية الأمر ، ومن دخل تلك الأراضي الزراعية ، أمكن الحصول على الحصان ، والمستلزمات الحربية والأسلحة • وعندما أوشكت الأراضي الزراعية على النفاد ، اتجه الملك الى الكنيسة ، كما فعل شارل المطرقة ، وأصر على أن يسلم الأساقفة ورؤساء الأديرة الاقطاعات الزراعية للمحاربين ليتمكنوا من الحصول على ما يحتاجون اليه • وفي مدى سنوات قلائل ، فرض على كل الرجال الذين يمتلكون قدرا معينا من

الأراضى الزراعية ، كما ورد ذكره فى مجموعة القوانين ، أن يتقدم بحصان كامل العدة ، والمعدات ، والأسلحة ، عندما يستدعيه الملك ، أو سيده الاقطاعى ٠

وعلى ضوء التأكيد على الأرض باعتبارها المصدر الذى يجهز الفرسان المسلحين كانت النتيجة الحتمية لذلك هى ظهور الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض ، التى هيمنت على كل جوانب الحياة تقريبا ابان فترة توازن العصور الوسطى ٠ وعلى حين استمرت الشهرة السياسية والاجتماعية لهذه الطبقة فترة طويلة ، بعد أن فقدت مبرر وجودها — وهو القدرة على تجهيز الفرسان المسلحين وقيادتهم فى المعركة — فان دورها ظل واضحا طوال الفترة من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر ، وهى الفترة التى يطلق عليها عصر الاقطاع ٠ وابان تلك القرون ظلت قوة الملك أو السيد الاقطاعى تحسب وفقا لقدرته على الحصول على فرسان تابعين له بالاضافة الى ما يستطيع أن يقدمه اليه أتباعه الاقطاعيون من فرسان ٠

على أن التفوق العسكرى ابان عصر الاقطاع ، وما له من تأثير على المجتمع فى العصور الوسطى ، انما كان مرده فى المقام الأول التكاليف الباهظة ، لمعدات الفارس الحربية ، وأسلحته وجواده ٠ وتكونت أسلحته الهجومية من الرمح ، والدبوس الثقيل لكسر الدروع والسيوف ٠ وكان الفارس يضع على رأسه قلنسوة مخروطية الشكل من الصلب ٠ وفى العادة كان لها امتداد طولى فوق الأنف لحماية الوجه ٠ وفيما بعد وضعت لوحة معدنية من خلفه لحماية الجزء الخلفى من الرقبة ٠ واستعمل قميص به حلقات معدنية يصل حتى الرقبة ٠ وحمل الفارس ترسا أخذ حجمه فى الصغر كلما ازدادت ملابسه الحربية قوة ٠ وبنهاية القرن الثانى عشر أصبح شائعا استخدام خوذة على شكل قدر اسطوانى الى حد كبير وبه شقوق طولية للعينين ٠ وفى ذلك الحين أيضا ، أصبح قميص الفارس الذى به الدروع طويلا لقدر كاف حتى أصبح قسمين فى النهاية لغطاء الساقين حتى انه وصل الى الحذاء ٠ وحمت أيضا أطواق من الحديد قدميه ٠ وكان الحديد يحمى هؤلاء الفرسان بشكل كامل فى القرن الثانى عشر لدرجة أن الأتراك أطلقوا عليهم « الناس الحديد » ٠ بيد أن تلك التعديلات تكلفت أموالا باهظة للغاية ، لذلك هبطت أعداد الفرسان ثقيلى العدة على نحو مطرد ، وبدأت تظهر طبقة من الخيالة خفيفة العدة نسبيا ، أطلق عليها اسم « المساعدون Sergeants » ٠

وكان الحصان أساسيا بالنسبة لفعالية الفارس فى ميدان المعركة بنفس درجة معداته الحربية وأسلحته ٠ ويستطيع الفارس أن يتحدى أى

عدد وهو على ظهر جواده المفضل · غير أنه اذا ترجل من على صهوة جواده استطاع أى جندى متواضع من المشاة أن يطعنه أو يحتفظ به من أجل الفدية · وكما ارتدى الفارس معدات حربية ثقيلة ليحمى نفسه ، فانه فعل ذلك قدر استطاعته مع حصانه · اذ كســـا جســـد جواده بدروع مرنه ذات زرد ، وكانت تقترب من الأرض شريطة الا تعوق سرعة حركته· ولسوء الحظ فان ذلك لم يكن كافيا أبدا لحماية بطن الحصان من طعنة خنجر أو سكين ، أو سن مدبب لرمح غرزه العدو بالأرض · لقد أثبت جواد الفارس أنه نقطة ضعف قاتلة فى بعض الأحوال ·

وثمة عامل آخر فى الاقطـــاع الحربى ســـاهم فى ايجـاد طبقة أرستقراطية متعالية من ملاك الأراضى · هذا العامل هو القلعة · اذ ظهرت القلاع في العصر الكارولنجى ، وازداد عددها ابان سنوات الاضطراب فى أواخر القرن التاســع ، وفى القرن العاشر ، عنـــدما تدهورت أحـــوال الامبراطورية الكارولنجية وفقد الملوك معظم سلطتهم · وفى انجلترا برز للوجود الكثير من القلاع فى عهد ســـتيفين Stephen الضعيف (١١٣٥ ــ ١١٥٤ م) · وفى عدد القلاع وازدياد شهرتها اشارة الى وجود من يملك أكثر مما يحكم بصفة عامة ·

كانت القلاع الأولى مبانى صغيرة قوية تستخدم كمأوى ضد هجمات العدو يحميها سور من الحديد القوى المدبب ، أو من الأعمـدة الخشبية ومحاطة بخندق مائى ، وغالبا ما كانت تقام فوق تل للعمل على زيادة قوتها ولسهولة التعرف عليها · وفى القرن الثانى عشر حلت القلاع المبنية من الأحجار محل القلاع الخشبية نتيجة للتجربة التى استفاد منها المسيحيون ابان الحروب الصليبية عندما عرف الفرسان المسيحيون الجديد عن القلاع المنيعة فى سوريا · وكان النمط العادى للقلعة هو المبنى الذى له سور خارجى حوله خندق moat-bailey ، وتكون بصفة أساسية من كومة عالية من الأحجار ، وفناء · وعلى الكومة العالية من الأحجار يقـام الحصن ، والذى عرف باسم البرج الضخم أو المعقل donjon or keep الذى بلغ ارتفاعه أحيانا مائة قدم أو يزيد ، وفناء يحميه ســـور ضخم عال ، وخندق مائى عميق يحيط بالسور ، وجسر متحرك فوق الخندق المائى ، للتحكم فى الدخول الى الحصن أو الخروج منه · وحتى انتشار البارود والمدفع الضخم المثبت فى القرن الخامس عشر ، استطاعت أسوار القلاع أن تتحدى جهود أى مهاجم افتقر الى الوسائل التى تمكنـــه من فرض حصار لفترة طويلة ، وتعريض المحاصرين للموت جوعا · وفى عصر كانت فيه وسائل النقل صعبة ، والخدمات المطلوبة للفارس وجنـــدى المشاة محدودة ، فان فرض الحصار الطويل لم يكن من السهل تحقيقه ·

ورغم الاهتمام الشديد الذى حظيت به الطبقة الأرستقراطية وكذلك الفارس فى الكتب والصور التى تصف عصر الاقطاع ، لم يتلاش شأن جندى المشاة تماما ٠

والحقيقة أن مكانته انخفضت انخفاضا شديدا ، على امتداد الحروب ٠ واستطاع الفارس طرده تقريبا من ميدان المعركة ، على حين انخفضت مكانته الاجتماعية أكثر عندما تولت طبقة ملاك الأراضى المراكز القيادية ٠ وبالرغم من ذلك ظل جندى المشاة محتفظا ببعض الأهمية ٠ اذ كان يستخدم فى حماية قلعة ، وفى المساعدة فى الدفاع عن المدن المسورة ، وبخاصة فى ايطاليا ، وفى الأراضى المنخفضة Low Countries ، وساعد فى نقل المعدات وكل ما يلزم لطبقة الفرسان وكان متوقعا أن يقود فرسا آخر على استعداد لتقديمه للفارس عندما يفقد فرسه الأول ٠ ويستطيع جندى المشاة التغلغل بين صفوف الفرسان المعادين ، ويطعن خيولهم أو يشل حركتهم ، وفى استطاعته قتل أو أسر أى فارس يقابله يفقد حصانه ، ومع ذلك ظلت هذه المهام أعمالا اضافية ٠

ان تاريخ الجيوش المكونة من المشاة الذين كانوا على استعداد لشن الهجوم فى القرن الخامس عشر الميلادى لايعود بنا الى هؤلاء الجنود الذين انتشروا بين صفوف الفرسان ، وانما الى جنود المشاة الذين حاربوا دائما باعتبارهم مقاتلين محترفين ٠ ووجدت تلك النوعية فى ويلز Wales واسكتلندا ، وسويسرا حيث أعاقت الأراضى الجبلية استخدام الفرسان ، أو فى بلاد الأراضى المنخفضة ، وفى شمال ايطاليا ، حيث احتاجت المدن المسورة الكبيرة والصغيرة منها الى وجودهم للحماية وأعمال الحصار ٠ فبفضل جهود المشاة استطاع الملوك الانجليز مد نفوذهم على ويلز ، وهو الأمر الذى لم ينجحوا أبدا فى تحقيقه مع الشعب الاسكتلندى ٠ ان ممرات جبال الألب فى سويسرا مكنت سكان المناطق الجبلية من الحاق سلسلة من الهزائم الشنيعة بالجيوش الاقطاعية لأسرة هابسبورج Hapsburgs ، والحصول على استقلالهم ٠ ان جنود المشاة فى اقليم فلاندر Flanders حاولوا دون تحقيق طموحات الفرنسيين فى الاستيلاء عليه مرارا وتكرارا كما حدث فى موقعة كورترای Courtrai سنة ١٣٠٢ م ٠ وفى ايطاليا كان لجندى المشاة الفضل فى تحقيق انتصار مدن شمال ايطاليا على فردريك برباروسا Frederick Barbarossa الامبراطور الرومانى المقدس ، فى موقعة ليجنانو Legnano سنة ١١٧٦ م ٠

وتفاوتت أنواع الأسلحة التى استخدمها هؤلاء المشـــاة الى حد ما وفقا للفترة التاريخية ، والبلد ، والمنطقة • وبعض هذه الأسلحة كان لا مثيل له فى مكان آخر مثل فأس الحرب الدانمركية التى لها مقبضان واستخدمها الأنجلو سكسون نقلا عن الغزاة الدانمرك • وكان السلاح الواحـد الذى يضم رمحا وفاسا للمعركة halberd شائعا بين أهالى سويسرا ، وهو نوع من الرمح طوله حوالى عشرين قدما ، ويحمل مجموعة منوعة من الأدوات الملحقة المدمرة فى طرفه ، خطاف ليجذب به الفارس أرضا من فوق جواده ، ورمح ، وفأس معركة يستطيع أن يصوبه جندى المشاة القوى بأقصى قوة ينجم عنها تحطيم درع أفضل الفرسان من حيث العدة القتالية • واشتهر أهالى ويلز بأقواسهم الطويلة التى استخدموها بدقة وقوة فائقة • ويدعى جيرالد من ويلز Gerald of Wales مؤرخ شعب ويلز الذى اتصف باطالة الحديث عن الأمور غير المهمة أنه شاهد أطراف سهم انطلق من القوس الطويل ، وقد انغرز لمسافة أربع بوصات فى باب مصنوع من خشب البلوط • وتحدث أيضا عن فارس تسمر جسده بجواده بسهم اخترق أطراف قميصـه الحربى وسرواله القصير ، وفخذه ، وصهوة فرسه ، الى أن اســتقر جزء من السهم فى خاصرة جواده •

وهناك القوس والنشاب ، وهو أشد فتكا بالرغم من أنه أقل دقة وأكثر صعوبة فى اطلاقه • ويرتبط هـذا السـلاح فى العادة بالقوات المرتزقة من أهالى جنوة ، الذين كانوا من بين أول المواطنين فى أوربا الذين حاربوا لقاء أجر • وتنطلق قذيفة هذا السلاح بقوة مروعة وتشوه أى شخص تشويها شديدا ان لم تقتله • انه كان ســلاحا وحشيا للغاية لدرجة أن الكنيسة أصدرت قانونا كنسيا بتحريم استخدامه • ثم يأتى دور الرمح حيث يتم دفن طـرفه الغليظ فى الأرض ، أو يغـرس فى الأرض بالضغط عليه بالقدم ، عند ذلك يمكن لهذا الرمح أن يبقر بطن أى جواد مهاجم • وبصرف النظر عن تلك الأسلحة الخاصة فهناك الأسلحة الشائعة مثل السكاكين ، والخناجر ، والسيوف الطويلة ، وبلطات الحرب، والسيوف المعقوفه عريضة الشفرة ، والقبضة الحديدية ، والرماح ، وكلها مجموعة أسلحة جندى المشاة • ومن أجل الوقاية استخدم جندى المشاة ما يمكن أن يحميه ، مثل الخوذة عندما كان ذلك متاحا ، واســتخدم تروسا وقميصا به دروع ، وقفازات حديدية •

وعلى الرغم من أن جنود المشـاة اسـتطاعوا تحدى تكبر الطبقة الارستقراطية الاقطاعية وفرسانهم فى أماكن من بلاد الأراضى المنخفضة وسويسرا ، فان هذه المنطقة المغرورة التزمت فى النهاية بالسلوك الحسن عند ظهور حاكم قوى • ان الظروف التى ساهمت فى اضعاف الدولة فى

أوائل العصور الوسطى بدأت تعمل لصالح الدولة بعد نهاية عصر الاقطاع. ففى نهاية القرن الحادى عشر ، وبعد أن أشبع الفايكنج والمجريون رغباتهم أو تم استيعابهم ، بدأت أوربا تنعم بحالة استقرار وسلام نسبى وانتشرت الصناعة والتجارة ، وازدادت المدن الكبرى والصغرى فى العدد ، وفى الكثافة السكانية ، وبدأ قدر متزايد من تدفق رأس المال يعمل على تنشيط اقتصاد غرب أوربا ـ وفى وقت قصير استطاع الملوك جمع دخول حكومية كبيرة الى الحد الذى مكنهم من تمويل معظم تكاليف الحرب، وانتزاع توجيه الحرب من أيدى الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض الذين اعتمد عليهم الملوك من قبل . فعلى سبيل المثال ، سمح هنرى الثانى ملك انجلترا لأتباعه الاقطاعيين بدفع مبلغ محدد عرف باسم البدلية ، بدلا من تأدية الخدمة العسكرية . ومن هذه المبالغ استطاع هنرى الثانى استئجار قوات مركزية ، وتعيين قادة لها وفقا لاختياره . ولقد عبرت الكنيسة ، وكذلك الصليبيون عن تأييدهم لظهور الملوك نظرا لأنهم هم الذين لبوا دعوة البابوات بصفة عامة لقيادة الجيوش المحاربة ضد غير المسيحيين . وبفضل ازدياد قوة الحكومات الملكية ، عقدت الكنيسة الآمال الكبرى على اقامة عالم مسيحى ينعم بالسلام .

كان وليم دوق نورماندى أحد الحكام الأول الذين تعاملوا مع أتباعهم الاقطاعيين بحزم ، وهو المشهور بوليم الفاتح لانتصاره فى موقعة هيستنجز سنة ١٠٦٦ م التى على أثرها صار ملكا على انجلترا . وبعد ذلك بوقت قصير وضع لويس السادس ، ملك فرنسا أسس سلطة ملكية قوية استخدمها حفيده فيليب الثانى أغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣ م) فى مد سلطته الى معظم فرنسا . وكان أروع انجاز حققه فيليب هو حرمان حنا ملك انجلترا الذى كان تابعا اقطاعيا له ، ويحكم غرب فرنسا ، من تلك الأقاليم ، وهى نورماندى ، واقطاعات أخرى شمال نهر اللوار . وفى سنة ١٢١٤ م شدد فيليب قبضته على تلك الأقاليم ، بعد أن هزم أتو الخامس ملك ألمانيا ، وحليف حنا فى موقعة بوفين . وبعد ذلك بمائة عام تقريبا ، كان فيليب الخامس يأمل فى استكمال العمل الذى بدأه فيليب الثانى ، وطرد الانجليز كلية من فرنسا ، غير أنه منى بهزيمة منكرة فى موقعة كريس سنة ١٣٥٦ م . واستغرق ذلك الأمر قرنا آخر من الصراع قبل أن يتم انجازه فى حرب المائة عام (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣ م) .

وكما ذكر من قبل ، فقد كانت الكنيسة أحد عوامل ظهور السلطة الملكية . ففى القرن الحادى عشر ، أوشكت البابوية أن تنزلق فى مستنقع النزاع السياسى الايطالى ، وناضلت من أجل انتزاع قدميها بمساعدة الملك الألمانى . ثم أخذت على عاتقها مهمة قيادة أوربا لشن

الحملات العدوانية ضد المسلمين والتى عرفت باسم الحروب الصليبية بهدف الاستيلاء على الأراضى المقدسة فى فلسطين · ولم يشترك ملك واحد فى الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ ـ ١٠٩٩ م) · اذ كان الاقطاع فى أوج قوته فى تلك الفترة ولم يكن الملوك فى العادة يزيدون قوة عن أتباعهم الاقطاعيين الذين لديهم تطلعات قيادية · بيد أن ملكى فرنسا وانجلترا توليا قيادة الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ ـ ١١٤٩ م) · ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، أصبح من عادة الملوك قيادة جيوش بلادهم بناء على مطالبة البابا الملحة ·

ولا توجد مشكلة استحوذت على جهد واهتمام البابوية منذ القرن الحادى عشر حتى نهاية العصور الوسطى مثل تنظيم الحملات الصليبية ضد تركيا · ولمعرفة الخلفية التاريخية لتلك الحملات ، على المرء أن يرجع الى ظهور الاسلام والدولة التى أقامها محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) كدولة دينية سنة ٦٣٠ م عندما فتح مكة المكرمة · ثم حمل الخلفاء (الراشدون) (*) بعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) الدعوة الاسلامية الى خارج حدود الجزيرة العربية · وعند نهر اليرموك أحرزوا نصرا حاسما سنة ٦٣٦ م على الجيش البيزنطى ، وسيطروا على سوريا ، وفتح لهم الطريق الى فتح مصر وشمال أفريقيا بسرعة · وبعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) وضع شارل المطرقة حدا للتوسع الاسلامى عندما هزم المسلمين المغاربة فى موقعة تور سنة ٧٣٢ م ·

وفى ذلك الحين ، وبرغم امتداد الدولة الاسلامية من نهر الهندوس الى بلاد ما بين النهرين ، وسوريا ومصر ، وشمال أفريقيا ، وعبر آسيا الى جنوب غرب فرنسا ، فان غرب أوربا ظل فى حالة من القلق غير الحاد · ان الامبراطورية البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية هى التى زودت الغرب المسيحى بالشعور بالأمن وعزلته عن أى هجوم خطير من قبل المسلمين اذ ان سيطرتها على الأناضول Anatolia ، والقسطنطينية جعلها تتصدى بصفة مستمرة لمحاولات المسلمين الوصول الى البلقان · وفى سنة ١٠٩٥ م أرسل الامبراطور البيزنطى طلبا ملحا للبابا أوربان الثانى Urban II للمساعدة ضد الأتراك السلاجقة ، الذين استولوا على الجزء الأكبر من الأناضول · ان الغرب قد أخذ على عاتقه مهمة الحملات الصليبية تحت قيادة البابوية لتدعيم أركان

(*) ما بين قوسين من عند المترجم ·

الدولة البيزنطية الى حد ما ، وبصراحة أكثر لطرد المسلمين من بيت المقدس وبيت ولحم ٠

حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحا كبيرا اذ لم تقتصر نتيجتها على الاستيلاء على بيت المقدس فحسب ، وانما تلا ذلك بعد فترة قصيرة قيام سلسلة من الامارات المسيحية التى امتدت على طول ساحل سوريا الى الشمال ٠ ومع ذلك ، فان مجرد نظرة الى الخريطة تكفى لتحذير أى فرد من غرب أوربا أنه ليس من الواقع فى شىء أن يفكر فى السيطرة على تلك الأراضى اذا ما اتحد المسلمون ٠ ان صلاح الدين هو الرجل الذى استطاع توحيد معظم المسلمين ، وأظهر ضعف مركز المسيحيين ـ ان انتصاره الساحق على جيش الصليبيين فى حطين سنة ١١٨٧ م وما تلاه من فتحه بيت المقدس ، كان أروع أعماله فى حياته ٠

كان نجاح صلاح الدين فى فتح بيت المقدس ، ومن ثم انهائه تقريبا الوجود المسيحى فى سوريا ، دافعا للملوك الثلاثة الذين يقودون أوربا ـ ريتشارد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وفريدريك بربا روسا ملك المانيا ـ الى القيام بالحملة الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ ـ ١١٩٢ م) ٠ وتبع ذلك حملات صليبية أخرى دون تحقيق نجاح كبير ، ومات لويس التاسع سنة ١٢٧٠ م ابان حدوث ما عرف باسم الحملة الصليبية الأخيرة ٠ وواصلت الحركة الاسلامية موقفها الهجومى ، بظهور الأتراك العثمانيين فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فى الوقت الذى ذهب فيه كل ما يتعلق بنوايا الفتح المسيحى لسوريا ، أدراج الرياح ففى ذلك الحين أصبح شغل البابوية الشاغل وكذلك أوربا المسيحية هو عرقلة تغلغل الأتراك فى البلقان ٠ وتحت الحاح البابوية المستمرة ، أعد غرب أوربا جيشا ضخما سنة ١٣٩٦ م تقدم بحذاء نهر الدانوب ، والبهجة تعلو وجوه الجميع لتوقعهم احراز نصر مبين ، الى أن وصلوا الى مدينة نيقوبوليس Nicopolis ٠ وفى ذلك المكان استطاع بايزيد السلطان التركى وجيشه تمزيق الجيش المسيحى شر ممزق ٠ ان بايزيد الذى عرف باسم الصاعقة ، كان يتطلع الى الاستيلاء على مدينة القسطنطينية اذ ان استيلاءه عليها يعطيه السيطرة الكاملة على جنوب شرق أوربا وأكبر المدن فى العالم الغربى ٠ وكان فى استطاعة بايزيد الاستيلاء على القسطنطينية فى ذلك الحين لولا الخان المغولى ، تيمور الأعرج (تيمولانك) حيث فقد بايزيد جيشه فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ م على يد تيمور ، وبعد ذلك بوقت قصير مات أسيرا فى مدينة سمرقند عاصمة تيمور ٠